من تراب الطريق (٣٨٤)

نداء الواجب (*) وعناية السماء

أويت عصر الأحد ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٩ إلى فراشى لائذا به من إجهاد يوم طويل ، فنمت على خلاف العادة نوما طويلا عميقا كان أقرب إلى الإغماء .. استيقظت منه شاعرًا براحة وعافية لم تطل ، قطعها وخز فى مكان لم أعد أخطئه على مر السنين منذ اعتل القلب أو شراينه التاجية فى أوائل السبعينيات ، وداويت وصلات هذه الشرايين التاجية عبر جراحة كبرى أجراها الجراح الأمريكى العالمى «جورج رول» فى مستشفى القديس لوقا فى هيوستن بالولايات المتحدة الأمريكية فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. نعمت بالهدوء والسلامة لعشر سنوات ، قبل أن تعاود الشرايين التاجية أنينها من وقت لآخر .. أتاحت عناية السماء وتقدم الطب تلبية ندائها بقسطرة تشخيصية / علاجية كل سنتين تقريبا ، مشفوعة فى كل مرة بدعامتين للتوسيع وتسليك مجرى الدم فى الشرايين ، فلما لاحقنى الوخز مساء الأحد ٢٢ نوفمبر ، تداركته بقرص فآخر لدواء الآيزورديل (Isordil) تحت اللسان ، ولكن الألم لا يزال مقيما يحمل نذيره فى إلحاح .. هل أضع القرص الثالث ؟! كان لابد من استشارة الصديق العزيز الأستاذ الدكتور جلال السعيد الذى يرعانى منذ عام ١٩٨٩ .. ما إن

(*) المال ٤/ ١/ ٢٠١٠

تلقى الاتصال الهاتفى حتى أمر بالذهاب فورا إلى مستشفى البرج .. هناك تلقفنى ملائكة الرحمة بعناية موصولة ، فظننت أن الإقامة بالمستشفى لن تستطيل وأننى سوف أغادر فى الصباح ..

فى صباح الاثنين ، زارنى الدكتور جلال ، وسمعنى ، ثم فجأنى بإصراره على أن أجرى فى نفس اليوم قسطرة تشخيصية من المحتمل أن تتحول إلى تداخلية لإجراء التوسيع البالونى وتركيب دعامات إذا لزم الأمر .. رجوته أن يدع لى الاثنين والثلاثاء ، واعدًا أن أكون تحت أمره من صباح الأربعاء .. فاستفسرنى مندهشا .. ولم يستطع أن يخفى صدمته الشديدة حين أفصحت له عن أنه من المتعين أن أقف صباح باكر الثلاثاء أمام محكمة جنايات الجيزة إلى جوار موكل لجأت إلىّ أسرته بعد أن حبس احتياطيا من ١٩/ ٦ مع تأجيل نظر دعواه إلى ٢٢/ ١١ .. قلت له مترافعًا عن ملتمسى ـ إننى لا أستطيع أن أتخلف عن هذا الرجل وعن أسرته التى علقت آمالها على حضورى ودفاعى وما سوف أبديه فى طلب الإفراج عنه .. لم يستطع الدكتور جلال أن يحجب تعجبه أو دهشته التى أخذت تتزايد وأنا أبدى له مرافعتى الحارة لأنال موافقته .. سمعنى بصبر، ولكن أعقبه نذير بأن قياس الأنزيمات قد جاء قاطعا بأنى أعانى من ذبحة صدرية غير مستقرة ، وأن مغادرتى المستشفى ناهيك بالتوجه إلى المحكمة ، خطر داهم على حياتى ! ولكن صداقتنا دفعتنى إلى المزيد من الإلحاح ، مبديا فى صدق أنه ليس بمستطاعى أن أخذل من تعلقت آمالهم بى ، وطفقت ألح فى إصرار لم يملك إزاءه إلاَّ أن يستخدم آخر سهم ، أنه لن

يسمح بخروجى إلاّ بأخذ إقرار منى أو علىّ بأننى أخرج رغم تنبيهى إلى خطورة الحالة على حياتى .. ظننت لوهلة أن الصديق يضغط لإثنائى ، وأن الأمور لن تصل إلى أخذ هذا التعهد الكتابى ، ولكنى فوجئت بعد نصف ساعة بأحد مساعديه يأتى ليستوقعنى باستلام تقرير ينص بعد توصيف الحالة ـ على أنه تم شرحها لى وبيان خطورتها تفصيليا ، وأننى رغم ذلك طلبت الخروج ـ الذى لا يوافق عليه الطبيب ! .. وأن خروجى يجرى على مسئوليتى .. وقعت الإقرار ثم غادرت المستشفى فى الحادية عشرة ظهر الاثنين لأعود لإجراء القسطرة المطلوبة صباح الأربعاء ٢٥/ ١١ ليلة وقفة عيد الأضحى !

لا أخفى أننى خرجت يصاحبنى قلق ، سارعت به فور وصولى إلى منزلى ، بطلب معمل الألفاسكان لإجراء تحليل آخر للإنزيمات ، عسى أن تكون معدلاتها المرتفعة قد عادت إلى الهبوط ، ولكن جاءت النتيجة تحمل نذيرًا مضاعفًا ، أن الأنزيمات ارتفعت أرقامها إلى ضعف ما كانت عليه .. سارعت بالاتصال بالدكتور جلال مخبرا إياه ، متوجسًا أن يأمرنى بالعودة فورا إلى المستشفى .. ولكن تفهم الإنسان لم يفارق خبرة النطاسى البارع ، فهدأ من روعى مطمئنًا إياى أن الأنزيمات تظل فى الارتفاع فى الأربع والعشرين ساعة التالية للذبحة الصدرية ، وأنه ليس علىّ إلاّ أخذ أقراص مهدئة وتفادى الإجهاد والانفعال أمام المحكمة فى اليوم التالى !

فى صباح الثلاثاء كنت أول الواصلين من زملاء مكتبى إلى قاعة المحكمة ، ظللت إلى موعد انعقاد المحكمة والنداء على القضية ، أغوص

فى أوراقى وأرتب حججى .. لن أستطيع أن أصف لك سعادتى ورضائى وأنا أقف أمام المحكمة ملبيًا نداء الواجب ، مؤيدًا بتوفيق لم يخالجنى شك فى أنه مشمول بعناية ربانية ظلت ترعانى حتى أديت مهمتى راضيًا بما فعلت وأنجزت ، ولكن عناية الله أبت إلاَّ أن تراضينى أكثر ، حين تلقيت وأنا فى طريق العودة اتصالًا هاتفيا بأن قرار التأجيل لتنفيذ الطلبات التى أبديتها ـ قد صدر مشفوعا بالإفراج عن المتهم وإخلاء سبيله !

فى صباح اليوم التالى ، كنت أرقد بسلام ممزوج بالرضا والإيمان ، فى غرفة العمليات بالمستشفى ..

أتابع مستيقظا ـ كنظام القسطرة ـ خطوط مسارها حتى استقرت عند موضع الاختناق بالوصلة الخلفية للشرايين التاجية ، فتداركته بتوسيع بالبالون ، وبدعامة طفقتُ أرقب كيف اتسع بها مجرى الشريان ، وكيف عادت الوصلة التاجية تمرر الدماء فى سلاسة ويسر إلى القلب الذى لبى نداء الواجب وسلم مقاديره إلى الله فأنعمت عليه عنايته بالمراضاة والنجاة .

*****